بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصّلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :

فأظن أنّ التّصدير البليغ المشكور الذى كتبه صديقنا وعالمنا الأستاذ الدكتور حسن السّاعاتى عميد كلية الآداب بجامعة عين شمس يُغْنِى عن سرد قصّة هذا الكتاب .

وأظن التمهيد الذى سَبَق هذه المقدمة يُغْنى أيضاً عمّا تواضع المؤلفون عليه فى المقدمات من التّنبيه على أهمية ما يتناولونه من موضوعات .

وهذا الكتاب المتواضع هو – من مشروع الجمع الصّوتىّ الأول للقرآن أو المصحف المرتل – بمثابة الدّليل الموضّح ، أو الملحق الشارح .

وسيرى القارئ أنى أخذت نفسى بالموضوعيّة إلى أبعد مدّى استطعتُه ، وأنّىَ – فى مناقشتى لكثير من الآراء – لم أنفعل قطّ ، ولم أتعصّب ؛ كما سيرى أنى – على ما تعوّده منى فى كل إنتاجى المتواضع – أعزو كلَّ شىء أوردته للاستشهاد أو للاعتضاد إلى صاحبه فى أمانة وتحرّز بالغَيْن .

وسيرى أنّ مراجعى لم تقِفْ عند كتب العلوم القرآنية ، وإنما تَعَدَّتْها إلى المتفرقات المبعثرة والشوارد البعيدة فى كتب التاريخ والفقه والأصول واللغة والأدب والشعر وغيرها .

هذا ، وفى كل رأى أحببتُ أن يُشاركنى فيه القارئ ، عرضت عليه – بادئ ذى بدء – من المعارف الموثّقة ما أظنه يُرضِى حاجتَه ويَشْفِى غُلَّتَه ، ولم أَدَعْه يُلِمّ بهذه المعارف إلمامة المتعجّل الخاطف ، بل لعلّى مكّنتُه من أن يقف وقفة المطمئنّ المُستأْنى .

وأظنّنى – فى ثنايا كتابتى – جلوتُ فى الموضوعات القرآنية كثيراً مما يَخْفَى مثلُه على الكثيرين ، وسهّلتُ ما يصعب مثلُه على غير المتخصّصين .

* * *

والكتاب من قسمين ، يسبقهما التّمهيد الذى أشرتُ إليه آنفاً ، وتليهما الخاتمة .

فأمّا القسم الأول فهو تاريخ مفصّل للمرات الثلاث لجمع القرآن : جمع أبى بكر ، وجمع عثمان ، ثم هذا الجمع الصوتى الأول .

وأظنّ هذا القسم قد استنبط – فى توفيق – مِنْهاجَى الجمعين المكتوبين ، وأبطل دعاوى الطاعنين عليهما ، بما لا حاجة بعده – غالباً – إلى مزيد .

وفى الحديث عن الجمع الثالث أو الصوتىّ الأول أو المصحف المرتّل : فكرتِه ، وتنفيذِه ، وردَتْ تفاصيلُ كثيرةٌ أرجو أن لاينكرها القارئ ، فإنّ ذِكْرها هو من مقتضيات الأمانة التاريخية ، وإسقاطَها – عند أصحاب أصول البحث – ليس سديداً .

وأما القسم الثانى وهو الخاصّ بالأغراض التى يقصدها مشروع الجمع الصوتى الأول للقرآن فهو فى أبواب ثلاثة : (أولها) عن حفظ القرآن فى ذاته ، و (ثانيها) عن الغاية التعليمية للمشروع ، و (ثالثها) عن مهمته الدفاعية .

وأظنّ الباب الأول ، فى شأن التَلَقّى الشفوىّ كوسيلة للحفظ السليم ، وفى شأن القراءات المتواترة والمشهورة ، والتى يجب الحرص عليها ، والإكثار من حفّاظها حتى لا يقلّ عددهم – فى كل بلد به مسلمون – عن عدد التواتر ، وفى شأن المنع من القراءة بالشواذّ . . . أظنّ ذلك البابَ ، فى كلّ هذه الشئون ، مع التزامه النصوصَ السليمة والإجماعَ المستفيض ، أزال عن الحقائق كلّ الأستار : كثيفها ، فضلا عن خفيفها ، ولم يدعْ شيئاً مهمًّا فى تاريخ القراءات إلاّ أورده .

وقد أبدى المؤلف أن من الواجب تقرير منع القراءات الشواذّ منعاً باتًّا من أن تسجّل صوتيًّا ، حتى لا يَقْرأَ بها مسلم ، أو يُظَنّ أنها والقراءات المتواترة والمشهورة على سويّة من الأمر ، وحسْبُ القراءات الشواذ أنها فى الكتب يَرجع إليها أصحاب الدّراسات الأكاديمية .

* * *

وفى باب التعليم ، تحدثت عن المصاحف المرتَّلة كنماذج صوتية ممتازة للأداء الشرعىّ الذى تستطيعه الكافة ، ووددت لو صادف الجهد هنا قبولا ، ثم تحدثت عن تيسير هذه المصاحف لتعلّم القرآن ، وكيف أنها الحلّ الوحيد لمشكلة اختلاف الرّسم العثمانى الاصطلاحى عن الرسم الإملائى .

* * *

وأما باب الدفاع عن القرآن وعن الإسلام كهدف من أهداف المشروع ، فقد استقصى أحد فصول هذا الباب – ضِمْناً – أهمَّ المطاعن التى وُجّهت إلى القرآن ، ثم استحضرها ، ثم لَفّقها جميعاً ، وإنّها لمطاعن مختَلَقَةٌ طالما ضاق بها الدارسون ، وانخدع بها بعض البسطاء .

وتكلّم فصل آخر عن درء التّحريف عن القرآن ؛ وعندما تكلم عن الكتب الدينية الأخرى ، التزم الحياد ، ولم يفعل غالباً سوى أن نَقَلَ عن نَفْس أتباع هذه الكتب .

وأخيراً ، تكلّم فصل « التمكين للغة العربية ، وللوحدة الإسلامية » عن أثر المصحف المرتل فى هذا التمكين.

* * *

وتكلمت « الخاتمة » عن تقييم المشروع كحدث له فى تاريخ المسلمين أثر بعيد ، وذكَرَتْ – فى شىء من التفصيل كيف ارتضاه النّاس ، وعرفوا له جلاله وخطره .

وأوردت هذه « الخاتمة »فى تقدير المشروع نصوصاً لم يكن من إيرادها بدٌّ ، وهى حَرِيّة أن تدلّ فى صدق على موقف المسلمين من المشروع ، وليس إيرادها – على أية حال – انحرافاً عن الجادّة العلمية ، حتى مع ما تضمّنته من حديث عن صاحب المشروع .

* * *

وبعدُ ، فإنّ الفضل من الله وإليه . وأمنيّةُ هذا العبد الضعيف أن يتفضل المولى بمنّه فيجعل هذا العمل كلّه خالصاً لوجهه ، وأن يتقبله بإحسانه .

« رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

« رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

لبيب السعيد

تمهيد

١

القرآن أساس الإسلام وقاعدته ، وهو كتاب العربية الأول والأكبر ، وعليه يتوقّف دين المسلمين ودنياهم : هو – عندهم – سبيلهم إلى الفوز العظيم فى الآخرة التى إليها معادهم ، وهو – عندهم – سبيلهم إلى الإمامة والسعادة فى الدنيا التى فيها معاشهم . هو أساس وجودهم السيّاسىّ والاجتماعىّ واللغوىّ والأدبىّ ، ولديه – فيما يعتقدون – حلول كلّ مشكلات هذا الوجود . يقول الشافعى : « فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها »[1] .

* * *

وعظّم الله حال القرآن « تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَىٰ »[2] فمن التنويه بعظمة القرآن ذِكْر عظَمة منزله القادر الذى خَلَق الأرض إحدى سيارات المجموعة الشمسيّة .

والأرض بما فيها من بشر لا يُحْصَوْن مختلفى الصفات البدنيّة والنفسية والذهنية ، وما فيها من برّ وبحر وسهول وجبال وزروع ومناجم وينابيع للبترول ، وما فيها أيضاً من أجواء وأزمان وحياة وموت . . الأرض ، بهذا كلّه ، هى ما هى سعةً وعجائب .

ومن التنويه كذلك بعظمة القرآن ذكر عظمة منزله القادر الذى خلق السموات العُلى ، وهى لا حصر لكواكبها ونجومها وتوابعها وأجرامها وسدائمها ، أى السُّحُب الملتهبة التى هى أصل النجوم فى مجاميعها .

وبحسْب المتفكّر فى الأكوان السماويّة أن يذكر أنّ الشمس – وهى كما أثبت علم الفلك مجرّد نجم متوسّط القدْر – جعلها الله سبحانه مصدر الحياة فى الكوكب الأرضىّ ، ومصدر النّور وكلّ طاقة حتى طاقة الفحم والبترول المخزونين تحت أطباق الثرى .

---

(١) الرسالة ص ٢٠ .

(٢) سورة طه / ٤ .

ولم يَعْيَ – جلّ شأنه – بخلق هذه الأكوان جميعها ، ولم يؤده رفعها إلى ما هى فيه من علوّ ، ولم يغب عن علمه شيء من أسرارها [١].

والقرآن – فيما يؤمن به المسلمون – أنزله الله مفصحاً عن جلاله ، وحُجَّةً لرسوله باقية الإعجاز على الأحقاب ، وبيّنة على أمانته فيما بلّغ من وحى .

وهم يعدّونه كتاب العقائد السّامية ، وأوّلها عقيدة التوحيد .

ويعدونه كتاب العبادات ، حيث هو الذى يُقررها [٢] .

ويعدونه كتاب الأخلاق ، إذ يحثّ على الفضائل كلّها ويحذّر من الرّذائل كافّتها .

وهم يعدّونه كتاب التّشريع بعامة : الجنائىّ ، والمدنىّ ، والاقتصادىّ ، والاجتماعىّ ، والسياسىّ ، والدولىّ والحربىّ ، ويعدّونه « حجّة الله عليهم وميثاقه الذى واثقهم به » [٣] .

وهم – بالضرورة – يؤمنون به إذ يقول عن نفسه : « قَد جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » [٤] . « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ [٥] . « إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » [٦] .

والقرآن يَعرض على الناس أحوال أمم أو جماعات أو أفراد غَبَروا بحسناتهم أو بقبائحهم ، ويذكر ما انتهى إليه أمرهم من خير إن كانوا عملوا خيراً ، ومن سوء إن كانوا عملوا سوءاً . وكما يعبّر : « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَن بَيِّنَةٍ » [٧] ، « لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ » [٨] .

---

(١) انظر : محمد بن أحمد الإسكندرانى : كشف الأسرار النورانية القرآنية حـ ٢ ص ٧٦ ، ومحمد أحمد الغمراوى : الإسلام فى عصر العلم ص ٤٩ – ٥٥.

(٢) ولا يطامن من هذا أنه يدع للرسول أن يبين للناس بعض أحكام هذه العبادات ، بل أن يدع للاجتهاد فرصة هذا التبين « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » (سورة النحل / ٤٤) ، « وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ » (سورة النساء / ٨٣) .

(٣) انظر خطبة منسوبة إلى على بن أبى طالب فى « نهج البلاغة » جـ٢ ص ١٩٩ و ٢٠٠.

(٤) سورة المائدة / ١٥ و١٦ .

(٥) سورة النحل / ٨٩ .

(٦) سورة الإسراء / ٩ .

(٧) سورة الأنفال / ٤٢ .

(٨) سورة يوسف / ١١١ .

ويقول على بن أبى طالب فى القرآن : « ألا إنّ فيه علمَ ما يأتى ، والحديثَ عن الماضى ، ودواءَ دائكم ، ونظمَ ما بينكم »[١] .

وكان ابن مسعود يقول : « من أراد علم الأولين والآخرين فليثْلُ القرآن[٢] » ، وهذا يمثّل غالباً اعتقاد المسلمين فيما حواه هذا الكتاب من نفع علمى شامل .

* * *

والقرآن – من الناحية الموضوعية البحت ، وبنصّ آياته الصريحة – يحرّر النّاس من ذِلّة الخضوع لغير جلال الله وسلطانه ، ولا ينافر العلم ولا يخاصمه ، بل يُعلى سلطانه وسلطان العقل ، ويحفز الناس إلى النظر والتفكير ، ويحفظهم من مزالق الأوهام والخرافات ، ويعتقهم من الجمود والرقّ ، ويسوّى بينهم ، ويبثّ فيهم الشعورَ بحقوقهم والإيمان بكرامتهم . وفى ظلّه عرفت البشريةُ العدل الأمثل حقيقة واقعة لا حلماً ولا أمنيةً يحلّق بها خيال فيلسوف ، ولا نظنّ أن هناك من يردّ هذا ومعه حجّة علمية .

* * *

والقرآن – وهذه حقائق تاريخية واقعةٌ وذائعة – أنجب عبقريات كثيرة أفاءت على الإنسانية خير نتاج فى الميادين الشرعية والأخلاقية والعقلية والإنسانية والاجتماعية والرياضية والفلكية والفنون التطبيقية ، وأوجد أدباء وخطباء ووعّاظاً وعلماء خبراء فى النقد الأدبىّ ، وهو الذى أوجد علماء القراءة والنحو والبلاغة والأصول والفقه والكلام ، وهيّأ العقول لفهم حضارات الأمم الأخرى وفلسفاتها ونقلها عَبْرَ القرون مزيدةً مهذّبة . ولقد نشر القرآن لغتَه وآدابها فى أصقاع ما كانت لِترودَها لولاه . وقد صفّى هذه اللغة من شوائب اللهجات الضعيفة ، ولولاه لاختلفت لغات الشعوب العربية اختلاف فروع اللاتينية أو الجرمانية مثلا .

والقرآن ، بهذه الخصائص كلّها ، ولأنه أطول من الكتب السماوية التى تقدّمته ، وبكون الإعجاز فيه يفوق سائر معجزات النّبيين ، لأنه – على عكسها – لم ينقرض بانقراض عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، وبكون هذا الإعجاز لا ينحصر فى الإخبار عن المغيّبات والإعلام بالأحكام كما هو الشأن فى تلك الكتب ، وإنما يشمل النطق والأسلوب . . . القرآن ، بهذا كلّه ، يعلو هذه الكتب جميعاً ، وكما يقرر هو : « وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَٰبِ لَدَيْنَا

---

(١) نهج البلاغة جـ٢ ص ١٣١ .

(٢) الألوسى : روح المعانى جـ١ ص ٧ .

لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ »[١] ، « وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ »[٢] .

ومن الواضح الذى لا تجافيه نتيجة أىّ استقصاء أن الدنيا لم تعرف – منذ كانت – كتابا تجرّد أتباعه لحفظه ، وبذلُوا أنفسهم فى إتقانه وتفهّمه ، وعُنوا به حرفاً حرفاً ، كما فعل أتباع القرآن .

وقد قيل – فى الهجوم عليه ، وفى محاولة صرف أتباعه عنه – إنه مكتوب بلغة ميّتة لا يستطيع المسلم أن يفهمها إلاّ بدراسة خاصة[٣] ، ولكنّ الواقع الذى يلمسه كلُّ ذى بَصَر بالتاريخ أن الدنيا لم تشهد كتاباً يُدانى القرآن فى إقبال أتباعه عليه واستهدائهم به ، وتقريرهم – فى صدق – أنّهم دائماً يقرأونه ويكتبونه ويسمعونه ، وهم – مع ذلك – لا يملّونه[٤] .

والمشاهد : أنهم – عرباً وغير عرب – سواءٌ فى تعلّقهم بالقرآن ، برغم الجهود المعادية المختلفة الألوان ، والتى كانت وما برحت تُبذل لصرفهم عنه . ومن المؤثر حقًّا : أن نرى المسلمين غير العرب يردّدون آيات القرآن مغالبين لُكنَتَهم فى محاولات غير هيّنة ، حتى إذا سمعوه من أخ لهم عربىّ أصغَوْا إليه بملء قلوبهم وأسماعهم ، وعدّوها فرصة ثمينة يستديمونها ويستزيدون منها .

وكذلك لم تشهد الدنيا كتاباً يُدانى القرآن فى اعتقاد أتباعه الخير فيه ، وطلبهم النفع عنده ، وأخذهم بأوامره وانتهائهم عن نواهيه . وهم – مع توزّعهم فى أرجاء الأرض واختلاف ألسنتهم وأصولهم – يَدَعُونه يترك فيهم انطباعاتِه الموحّدة غالباً .

ولقد وَضَح هذا كلّه للوليّ والعدوّ ، فقال قائل المستعمرين « جلادستون » الإنجليزى ، فى أخريات القرن الماضى ، فى مجلس اللوردات البريطانى ، و هو يمسك بالمصحف : « ما دام هذا الكتاب على الأرض فلا سبيل لنا إلى إخضاع المسلمين[٥] » . ومن قبلُ ، وبُعَيْد سنة ١٥١٦م التى طبع فيها الزَّبور للمرة الأولى فى إيطاليا ، طُبِعَ القرآن الكريم فى البندقية ، ثم ما لبث النصارى أن أعدموا طبعته خوفاً من تأثيره على معتقداتهم[٦] .

---

(١) سورة الزخرف / ٤ . (٢) سورة المائدة / ٤٨ .

(٣) André Servier : Islam and the Psychology of the Musulman. p. 197.

(٤) الحصرى القيروانى : زهر الآداب وثمر الألباب جـ١ ص ١٠١ .

(٥) هذه القصة ثابتة مضيفة . (٦) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية حـ ٤ ص ٤٣ .

٢

وإقراء القرآن هو – وهذا شيء طبيعي – أوّلُ ما عمد إليه النبي (ص) فى إبلاغ دعوته الكبرى . وقد كان مبعوثوه إلى مختلف الجهات يقومون – أول ما يقومون – بإقراء الناس القرآن :

كتب النبي لعمرو بن حزم ، حين وجهه إلى اليمن ، كتاباً أمَرَه فيه بأشياء منها أن « يعلّم الناسَ القرآن ويفقههم فيه »[١] .

وروى البخارى عن أبى إسحٰق ، عن البراء ، قال : « أول من قدم علينا من أصحاب النبي – صلّى الله عليه وسلّم – مصعب بن عمير ، وابن أمّ مكتوم ، فجعلا يقرئاننا القرآن »[٢] . وكان مصعب يسمّى المقرئ[٣] .

وكان الرجل من المسلمين إذا هاجر إلى المدينة دفعه النبي (ص) إلى رجل من الحفظة ليعلّمه القرآن .

ولما فتح النبي مكّة خلّف عليها معاذ بن جبل يقرئهم القرآن ويفقّههم[٥] .

وعن أنس بن مالك ، قال : جاء ناس إلى النبي – صلّى الله عليه وسلّم – فقالوا : أنِ ابعث معنا رجالا يعلّمونا القرآن والسّنّة ، فبعث إليهم سبعين رجلا من الأنصار ، يقال لهم القراء . . . إلخ[٦] .

وأوصى النبي بإكرام أهل القرآن ، وسمّاهم اسماً ينبض بأعظم المعانى : سمّاهم : « أهل الله

---

(١) ابن هشام : سيرة النبي حـ ٤ ص ٢٠٥ .

(٢) انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ص ٢٦١ .

والفراء (البغوى الحسين بن مسعود) : مصابيح السنة جـ ٢ ص ١٩١ .

والطيالسيّ : مسند أبى داود الطيالسى ح ٧٠٤ .

(٣) ابن هشام : المرجع السابق حـ٢ ص ٤٢ .

وانظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى حـ٨ ص ١١٧ و١١٨ (ط . بيروت)

والزرقانى : شرحه على المواهب اللدنية حـ ١ ص ٣٧٩ .

(٤) انظر : أبو على القارى : شرح العقيلة – الورقة ٦ (مخطوطة بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، رقمها ٢٣ قراءات).

(٥) انظر نفس المرجع . (٦) انظر : مسلم : الجامع الصحيح حـ ٦ ص ٤٥ – باب ثبوت الجنة للشهيد

وخاصّته »[١] ، وقال فيهم : « أشراف أمتي حملة القرآن »[٢] ، وقال : « خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه »[٣] . ومن أجل هذا الحديث ، قعد أبو عبد الرحمن السلمي أربعين عاماً يقرئ الناس بجامع الكوفة ،مع جلالة قدره وكثرة علمه[٤] ،

وقد سئل سفيان الثوري عن الجهاد وتعلم القرآن ، فرجّح الثاني ، واستَدلّ بهذا الحديث[٥] بل إن النبيّ يُعْلي مرتبة أصحاب القرآن أيّما إعلاء ، إذ يقول إنهم يكادون يحوزون في صدورهم ما حاز الأنبياء ، لولا أنهم لا يتلقَّوْن وحي السّماء : عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « من قرأ القرآن فقد استدرج النّبوة بين جَنْبَيْه ، غير أنه لا يُوحَى إليه »[٦] .

والنبي يؤثر أهل القرآن بإمامة الصلاة ، فيقول : « يؤمُّ القومَ أكثرهم قرآناً ، فإن كانوا في القرآن واحداً فأقدمهم هجرةً ، فإن كانوا في الهجرة واحداً فأفقههم فقهاً ، فإن كانوا في الفقه واحداً فأكبرهم سنًّا »[٧] .

وكان القراء أصحابَ مجلس عمر بن الخطاب وأصحاب مشاورته كهولاً كانوا أو شباناً[٨]

---

(١) رواه ابن ماجه ، وأحمد ، والدارمي ، من حديث أنس
وانظر : المناوي : فيض القدير شرح الجامع الصغير حـ٣ ص ٦٧
وعلي بن سلطان القاري : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح حـ٢ ص ٥٧٣ .

(٢) عن ابن عباس ، ورواه الطبراني في : « الكبير »
وانظر : المناوي : المرجع السابق حـ ٢ ص ٥٢٢ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، في كتاب فضائل القرآن – كتاب ٦٦ باب ٢١
وانظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري جـ٩ ص ٦١ وما بعدها (ط . المطبعة البهية المصرية – سنة ١٣٤٨) .
وأبو داود : كتاب ٨ باب ١٤ والترمذي . كتاب ٤٢ باب ١٥
وابن ماجه : حـ١ ص ٩٢ و٩٣ والدارمي : كتاب ٢٣ باب ٢
والطيالسي : حديث ٧٣ .

(٤) ابن الجزري : النشر في القراءات العشر جـ١ ص ٣ .
وأبو نعيم : حلية الأولياء حـ ٤ ص ١٩٤ .

(٥) ابن الجزري : نفس المرجع حـ١ ص ٥٥٢ .

(٦) انظر : الحاكم النيسابوري : المستدرك جـ١ ص ٥٥٢ .

(٧) انظر : نفس المرجع جـ ١ ص ٢٤٣ .
والبغوي الفراء : مصابيح السنة جـ ١ ص ٥٥ و٥٦ .

(٨) هذا قول ابن عباس . .
وانظر : صحيح البخاري – كتاب التفسير – باب « خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ » ح ٤٦٤٢ ، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة – باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وانظر أيضاً ابن حجر العسقلاني : فتح الباري حـ٨ ص ٣٠٤ وما بعدها و حـ٣ ص ٢٥٠ وما بعدها (ط . محب الدين الخطيب)

والقرآن يغنى صاحبه عن كلّ حسب ونسب ، وشرفُ التَّفقّه فيه فوق كلّ شرف ، ألا ترى أنه لا يصدّ واحداً من أهل القرآن عن إمامة الناس أن يكون أعرابيًّا أو عبداً مملوكاً أو حتى ولد زنا[١] .

والقيام على خدمة المصحف وتعليمه للناس هو فخر الفاخرين . يقول العجّاج فى رَجَزِه :

ثم رأى أهل الدّسيع الأعظم ... خندف الجدّ الخِضَمّ المخضَّم
وذروة النّاس وأهل الحكَم ... ومستقرّ المصحف المرقّم
عند كريم منهم مكرَّم ... معلّمٍ آىَ الهدى معلّمِ
مبارك للأنبياء خاتمِ ... فخندف هامة هذا العالَم [٢]

* * *

وسمّى الله القرآن ذكراً ، وتوعّد المعرض عنه ، فقال : « وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا [٣] ۝

وقال : « وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ »[٤] .

---

(١) هذا قول أبى حنيفة ، وبه يأخذ صاحبه محمد بن الحسن الشيبانى
وانظر : محمد بن الحسن الشيبانى : كتاب الآثار ص ١٧

(٢) مجموعة أشعار العرب ، وهو يشتمل على ديوانى الأراجيز للعجاج والرّقيان ص ٦٠ الأبيات ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ .
وقيل إنّ العجاج كان يهمز (العالم) و (الخاتم) ونحوهما . (انظر : محمد على النجار : مباحث لغوية – الإبدال – بحث فى مجلة الأزهر ، مجلد العام ١٣٦٦ هـ ص ٤٥٥) .
والدسيع من الإنسان : العظم الذى فيه الترقوتان ، وقيل : هو مركب العُنُق فى الكاهل ، وقيل : الدسيع : الصّدر والكاهل .
وخندف : امرأة إلياس بن مضر بن نزار ، واسمها ليلى ، والخندفة : مشية كالهرولة ، قالت خندف لزوجها : ما زلت أخندف فى إثركم ، فقال لها : فأنت خندف ، فذهب لها اسماً ، ولولدها نسباً ، وسميت بها القبيلة .
والخضم : السيد المحمول الجواد المعطاء الكثير المعروف والعطيه .
والمخضم : الموسّع عليه من الدنيا .
وانظر : ابن منظور : لسان العرب ، فى المواضع المختصة .

(٣) سورة طه / ٩٩ – ١٠١ .

(٤) سورة طه / ١٢٤ و١٢٥ و١٢٦ .
يقول ابن قيمّ الجوزيّة فى (مفتاح دار السعادة جـ١ ص ٤٢ ، نشر مكتبة الرياض الحديثة بالرياض) فى شأن قوله تعالى : « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى . . . » : وليس المعنى : ومن أعرض عن أنْ يذكرنى . . . وأحْسَنُ من هذ الوجه أن يقال : الذكرُ هنا مضاف إضافة الأسماء لا إضافة المصادر إلى معمولاتها . . . والمعنى : ومن أعرض عن كتابى ولم يتبعْه . . . فإنّ القرآن يسمّى ذِكْرًا :

والقرآن يَعجب من المعرضين عنه والنافرين منه ، ويتهكم عليهم : « فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ » .

وخوّف النبيّ المسلمين من نسيان القرآن تخويفاً فعّالا ، فقال : « ما من امرئٍ يقرأ القرآن ثم ينساه إلاّ لقى الله يوم القيامة أجْذم »(٢) .

وكما أنّ الناس مُتعبَّدون باتّباع أحكام القرآن وحفظ حدوده ، فهم مُتعبَّدون بتلاوته وحفظ حروفه (٣) ، بل إنّه ورد فى الحديث « أفضل العبادة قراءة القرآن »(٤) ، كما ورد « أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن »(٥) .

وقد أثنى الله على من كان دأبه تلاوة القرآن ، فقال « يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَاءَ ٱلَّيْلِ »(٦) ، « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ »(٧) .

والنبى يحض على حفظ القرآن ودوام تلاوته والعمل به ، فيقول : « مَثَلُ المؤمن الذى يقرأ القرآن مَثَلُ الأُتْرجّة(٨) : ريحها طيّب ، وطعمها طيّب ؛ ومثَل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثَل الثمرة : لا ريح لها ، وطعمها طيّب حلو ؛ ومثَل المنافق الذى يقرأ القرآن مثَل الريحانة : ريحها طيّب ، ولا طعم لها ؛ ومثَل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثَل الحنظلة : ليس لهـا ريح وطعمها مرٌّ »(٩) .

= قال تعالى : « وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ » (سورة الأنبياء / ٥٠) .
وقال تعالى : ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ » (آل عمران / ٥٨) .
وقال تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ » (فصّلت / ٤١) .
وقال تعالى : « إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ » (يس / ١١) .

ويقول ابن كثير الدمشقى فى الكلام عن شروح آية : « ومن أعرض عن ذِكْرِى . . . » : إن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعريضه للنسيان ، وعدم الاعتناء به فيه تهاون كبير وتفريط شديد ، نعوذ بالله منه (انظر : فضائل القرآن ص ٦٩) .

(١) سورة المدّثر / ٤٩ – ٥١ .
(٢) انظر : البغوى الفراء : مصابيح السنة جـ ١ ص ١٠٥ .
(٤) المناوى : فيض القدير جـ ٢ ص ٤٤ .
(٣) ابن الجزرى : النشر جـ ١ ص ٣٨ .
(٥) أخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » ، وانظر المرجع السابق .
(٦) سورة آل عمران / ١١٣ .
(٧) سورة فاطر / ٢٩ و ٣٠ .
(٨) هى ثمر جامع لطيب الطعم والرائحة وحسن اللون .
(٩) أخرجه البخارى فى ٧٠ – كتاب الأطعمة : ٣ – باب ذكر الطعام ، (رواه مسلم ، والنسائى ،وابن ماجه ، عن أبى موسى الأشعرى)
وانظر : ابن حجر العسقلانى : فتح البارى جـ ٩ ص ٥٤ و ٥٥ (ط . البهية) .

وفى صحيح مسلم[١] عن عائشة قالت : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « الماهر بالقرآن : مع السَّفَرَةِ[٢] الكرام البَرَرَةِ ، والذى يقرأ القرآن ويَتَتَعْتَعُ[٣] فيه ، وهو عليه شاقّ : له أجران »[٤] .

وعن ابن عبَّاس ، أن النبى صلى الله عليه وسلّم قال : « أحبُّ الأعمال إلى الله الحالُّ المرتحل » .

قالوا : ومن الحالُّ المرتحل يا رسول الله ؟

قال : صاحب القرآن يقرأ من أوّله لآخره ، كلّما حلّ ارتحل[٥] .

* * *

وقد جاز التبديل والتغيير على أهل الكتب الدينية الأخرى ، فقد حرّفوا الكلم من بعد مواضعه[٦] ، وشهد شهود منهم أنّ بعضهم كتبوا الكتاب بأيديهم ، وكما عبّر القرآن – « وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ ويَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمُونَ »[٧] . واندرست على الأيام الكتب القديمة التى ذكرها الله فى كتابه فى قوله : « إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ »[٨] ، ولا يُعرف اليومَ منها شىءٌ ، أما القرآن فمحفوظ أبداً فى الصّدور ، وفى السُّطور ، « لا يغسله الماء » كما جاء فى حديث قدسىّ[٩] .

---

(١) حـ٦ ص ٨٤

(٢) يعنى : فى منازل الملائكة ، لأنه يحمل – مثلهم – كتاب الله تعالى .

(٣) يتردد فى تلاوته لضعف حفظه .

(٤) أجر القراءة ، وأجر المشقة .

(٥) انظر : القرطبى المفسر : الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٣٠ .

(٦) سيكون لنا فى أحد فصول الكتاب حديث مفصل فى هذا الشأن ، إن شاء الله .

(٧) سورة آل عمران / ٧٨

(٨) سورة الأعلى / ١٨ و١٩

(٩) أى أن محوه من الصحف بالماء لا يؤثر فيه ولا يزيله .

وانظر : مسلم بن الحجاج : الجامع الصحيح حـ٨ ص ١٥٨ و١٥٩ ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

وانظر : ابن الجزرى : النشر حـ١ ص ٦

٣

ويقول « يوسف على » مترجم معانى القرآن إلى الإنجليزية : « ليس فى الدنيا كتاب وُضِعت فى خدمته مثل هذه الكثرة من المواهب التى وُضِعَتْ فى خدمة القرآن ، ولا مثل هذه الوفرة من العمل والوقت والمال »(١) . وهذا حقّ ، فقد عنى المسلمون بالقرآن عناية لم يظفر بها – على مدى التاريخ – أىّ كتاب سماوى أو غير سماوىّ . ولعلّ من مصاديق هذه العناية هذه الأعداد الضخمة من الكتب الجليلة التى خَدَمَتْ علوم القرآن منذ أقدم القرون الإسلامية ، وهذه البحوث والفنون التى كان القرآن دائماً موضوعها(٢) .

(ا) فقد عنى القراء بضبط لغات القرآن ، وتحرير كلماته ، ومعرفة مخارج حروفه ، وعددها ، وعدد كلماته وآياته ، وسُوَره وأحزابه ، وأنصافه ، وأرباعه ، وعدد سجداته . وحصر الكلمات المتشابهة ، والآيات المتماثلة .

(ب) واشتغل النحاة بالمعرب منه من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها ، وتكلموا فى الأسماء ، وتوابعها ، وضروب الأفعال ، واللازم ، والمتعدى ، ورسوم خطّ الكلمات ، وتوسعوا فى شواهده ، حتى لقد أحصوا منها – فيما قيل – ثلثمائة ألف بيت من الشعر . يقول « مصطفى صادق الرافعى » تعقيباً على هذا : « ولعمر أبيك إنها لمعجزة فى فنها(٣) » . وبَلَغ من عناية بعضهم بالقرآن أن أعربه كلمة كلمة(٤) .

(حـ) والتفت المفسرون إلى ألفاظه وإلى معانيه ، فأوضحوا الخفىّ منها ، وخاضوا فى ترجيح المعانى التى يختارونها للألفاظ . وقد ذكر « حاجى خليفة » من تفاسير القرآن وكتب

---

(١) Commentaries on the Quran, p. IX.

(٢) نقلاً عن : السيوطى : الإتقان جـ٢ ص ١٢٦ و ١٢٧ بتصرف ، ويذكر السيوطى أن أبا بكر بن العربى ذكر فى قانونه « التأويل » أن علوم القرآن ٧٧٤٥٠ ، على عدد كلم القرآن مضروبة فى ٤ ، على أساس أن لكل كلمة ظهراً وبطناً وحّداً ومطلعاً ، وذلك فى المفردات وحدها ، فأما إذا اعتبرت التراكيب وما بينها من روابط كان ما لا يحصيه إلا الله تعالى (نفس المرجع ص ١٢٨) .

وانظر أيضاً الكتب المصنفة فى الموضوعات القرآنية فى : ابن النديم : الفهرست ص ٣٣ ٣٥ (ط ، أوربا)

(٣) إعجاز القرآن – هامش ص ١١٩

(٤) انظر مثلاً :

العكبرى : إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه إعراب القرآن .

وابن خالويه : كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم .

معانيه ومشكله ومجازه وغريبه ولغاته وقراءاته ، ذكَرَ من هذا بعض ما عرف فى زمنه ، فبلغ ما ذكره مئات كثيرة [١] .

(د) واتجه الأصوليون إلى القرآن يستنبطون مما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية علم أصول الدين ، كما يستنبطون منه أحكام اللغة : من الحقيقة ، والمجاز ، والتخصيص ، والإخبار ، والنص ، والظاهر ، والمحتمل ، والمحكم ، والمتشابه ، والأمر ، والنهى ، والنسخ ، إلى غير ذلك من الأقيسة ، واستصحاب الحال ، والاستقراء .

(هـ) وتخصص علماء الفروع فى إحكام النظر والفكر فيما فى القرآن من الحلال ، والحرام ، وسائر الأحكام .

(و) وأخذ أهل التاريخ والقصص من معين القرآن تاريخَ الأمم الخالية وقصص القرون السالفة .

(ز) واعتمد الخطباء والوعاظ – فى وعظهم – على ما فى القرآن من الوعد ، والوعيد ، والتحذير ، والتبشير ، وذكر الموت ، والميعاد ، والحشر ، والحساب ، والعقاب ، والثواب ، والجنة ، والنار .

(ح) وأقام علماء الفرائض علمهم على نصوص القرآن وشروحها .

(ط) كما استخرج أصحاب علم المواقيت قواعد علمهم من آيات القرآن .

(ى) وكذلك استنبط البلاغيّون علوم المعانى والبيان والبديع من نظرهم إلى ما فى القرآن من جزالة اللفظ وبديع النظم ، وحُسْن السّياق ، والمبادئ ، والمقاطع ، والمخالص ، والتّلوين فى الخطاب ، والإطناب ، والإيجاز ، وغير ذلك .

(ك) ومن معانى القرآن ودقائقه أخَذَ الصوفية مصطلحات فنّهم ، وقبسوا أنوار طريقهم .

٤

والقرآن فى كل بلد إسلامى هو دستوره الحى الأصيل . ومصر بالذات تأخذ بالقرآن منذ دخلها الإسلام . وقد نصّت دساتيرها المتعاقبة فى العصر الحديث على أن دينها الرسمى هو الإسلام دين القرآن ، وأن لغتها الرسمية هى اللغة العربية لغة القرآن ؛ وهذه الجمهورية – فوق

---

(١) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ص ٣٣ – ٣٦ .

ذلك – هى الآن ، ومعها بلاد إسلامية شقيقة ناهضة ، مواثل الدراسات الإسلامية والآداب العربية ، وكلها تعتمد – أولَ ما تعتمد – على القرآن .

° ° °

وقد يعترض معترض على الأخذ بالقرآن بإطلاق ، وعلى اتخاذه دستوراً وسبيلا إلى الإمامة فى الأرض ، فيقول إن الأعصر الحديثة غير العصر الذى جاء فيه ، ولكن هذا الاعتراض محجوج بما ذكرنا مضمونه فى أكثر من كتاب من كتبنا ، وهو أن للقرآن منهجاً خاصًّا فى تقرير الأحكام ، فهو يضع – بما يناسب روحه ويساير وجهته – الأصول الكلية والمبادئ العامة ، ثم يدع للسُّنّة تفسير هذه الأصول والمبادئ ، ويدع للمجتمع - بعد الرسول – تطبيقها بما يكفل مواجهة ظروف الحياة المتجددة ومطالب الأزمنة والبيئات المتغيرة .

وعندنا – فى غير خروج على الموضوعية – أنه ليس يصعب على أهل القرآن – إذا عرفوا الأشباه ، وقاسوا الأمور بنظائرها ، ورجعوا إلى أعراف الناس ، فى الاستطابة والاستخباث ، وانتفعوا بالاستدلالات ، والتفريعات ، وسائر قوانين الاستمداد ، وقوانين الاستنباط . مما عُنى به علم الأصول . . . ليس يصعب – إذا فعلوا ذلك – أن يستخلصوا من آى الكتاب ، ومن السّنّة الشارحة ، ومن تطبيقات السَّلف : مبادئ مثالية على الدوام ، تواثم أحوالهم ، وتحقق مصالحهم ، وأن يطبقوها متميزين ، آخذين من كتابهم : نصوصه وروحه ومعقوله ، مسيغين ما يأخذون ، متبوعين لا تابعين [1] .

---

(١) انظر : لبيب السعيد : العلاقات العمالية الإنسانية وأيديولوجيتها فى المجتمع العربى ص ١٩١ (الطبعة الثانية) .